

وقد يبدو أدب العصر الجاهلي وحدة زمانية ومكانية ، من حيث لم يصل إلينا منه إلا ما بقي من تراث القرنين الأخيرين قبل الإسلام ولم تكن العربية قد خرجت من جزيرتها ، وخالطت الشعوب التي تعربت بعد الفتح الإسلامية .

ومع ذلك ، استطاع دارسون محدثون أن يميزوا في الأدب الجاهلي بين بيئات البدو والحضر ، وعلى هذا التمييز أدار المستشرق « نالينو »^(١) تقسيمه لبيئات الشعراء الجاهليين ، فهم عنده شعراء البادية ، وشعراء الحضر ومعهم شعراء الحيرة وغسان .

و « محمد بن سلام » قد التفت إلى هذا الملحظ من عصر مبكر ، فجعل شعراء القرى العربية – الحواضر : مكة ويثرب والطائف والبحرين – طبقة خاصة ؛ في كتابه الرائد (طبقات الشعراء) .

وكنا في الدراسة الجامعية ، على هذا التقسيم زمنياً . حتى بدا لنا عُسْرُ التمييز بين حضر وبدو ، في العصر الجاهلي الذي هو بطبيعته عصر بداوة ! وشقَّ علينا أن نقتنع ، فضلاً عن أن نقنع طلابنا ، بفوارق من خشونة ورقة ، وجفاوة ولين ، وإن الشاعر من بدو أو حضر ليتغزل أو يرتي فيكاد يذوب من رقة ، ويفخر أو يتوعد أو يهجو فيكاد يقذف بالصخر ! وإن القصيدة الواحدة لتتفاوت بين جزالة وخشونة ويسر ولين ، تبعاً لاختلاف الموقف الشعري . وبحسبنا أن نذكر تفاوت أبيات الغزل في (معلقة امرئ القيس) عن وصفه لليل والفرس ، وأبيات الناقة في (معلقة طرفة) عن خواطره وتأملاته في الموت والحياة . وأبيات (معلقة الحارث بن حلزة) في موقف الارتحال ، عن أبياته في موقف الحصومة بين بكر وتغلب . . .

و « النابعة النديباني » عاش في قصور المناذرة بالحيرة ، حيث الحياة المترفة الناعمة في أعلى مستوى عرفته بيئته حضرية لعرب الجاهلية . . .

فاسمع ما قال « أبو عبيدة » في شعر هذا النابعة :

« إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأنيثه ولينه . وإن شئت قلت :

(١) في محاضراته بالجامعة المصرية في تاريخ الأدب العربي ، وقد جمعها ابنته المستترقة السيدة « مريم نالينو » ونشرتها دار المعارف بالقاهرة .